

أدب السجون والمنافي في الجزائر في فترة الإحتلال الفرنسي

إعداد الطالب : يحيى الشيخ صالح
معهد اللغة والأدب العربي

تعود أول علاقة لي بهذا الموضوع الى بداية الثمانينيات عندما كنت أحضر رسالة الماجستير في شعر الثورة عند مفدي زكرياء ، إذ لفت انتباهي ما اتسمت به القصائد التي نظمها هذا الشاعر في سجون الاستعمار ، من سمات خاصة تميزها عن غيرها من القصائد التي نظمت خارج السجن ، حتى ليكاد الباحث أن يهتدي الى التفريق بين النوعين من غير أن يطلع على مناسبة القصيدة ومكان ميلادها .

بعد ذلك ، ومن خلال مطالعات كثيرة في إطار الأدب الجزائري الحديث الذي ظهر في فترة الإحتلال الفرنسي ، لفتت انتباهي ظاهرة أخرى ، هي وفرة هذا النوع من الأدب الذي أنتجه كُتّاب وشعراء ذاقوا مرارة سجون الاستعمار وأبدعوا في أعماقها ، وبشيء من البحث والتحري تأكد لديّ أن ظاهرة أدب السجون في العهد الاستعماري ظاهرة فريدة قائمة بذاتها ، لها أسبابها وتجلياتها ونتائجها ... وليس مجرد ملمح أو طابع يخص بعض النتاج الأدبي دون غيره .

وإذا كانت هذه الظاهرة غير خاصة بالأدب الجزائري الحديث ، بدليل وجود أدب السجون منذ عهود سحيقة من التاريخ ، فإنها - مع ذلك - اتخذت شكلاً أكثر وضوحاً وتفرداً في الأدب الجزائري ، بتأثير عوامل كثيرة ، أهمها ما فُطِرَ عليه الجزائريون من تحدّ واستماتة في سبيل ما يطلبون ، وبخاصة اذا كان هذا المطلوب هو الحرية المقدسة ، بالإضافة الى نوعية الاستعمار الفرنسي ، وتفوّقه في أساليب التعذيب والتنكيل ، وتفننه في

أنواعه وطرقه ... الشيء الذي جعلني أتأكد أن ظاهرة أدب السجون والمنافي في الجزائر في فترة الإحتلال الفرنسي ظاهرة فريدة تستحق دراسة خاصة .

إن هذه الظاهرة التي تقوم على أساس انعدام الحرية ، تدخل في إطارها حالات كثيرة تختلف تسمياتها ، لكنها تشترك في أساسها الذي هو انعدام الحرية ، وهي ما يلي :

أ - السجون : وهي بنايات معروفة بشكلها وحصانة بنائها ، ولا يزج فيها - في الغالب - إلا بمن ثبتت عليه التهمة ، أو صدر في حقه حكم ما ، ليقضي فيها فترته المحددة .

ب - المعتقلات : وهي من حيث الشكل أشبه بالثكنات والمعسكرات ، وقد تكون بنايات أعدت لأغراض أخرى ، أو خيماً تزيد وتنقص حسب الحاجة ، ومن حيث الوظيفة تمثل مرحلة ما قبل السجن ، إذ يزج فيها بالمشبوهين قصد الفرز والتأكد وبالمتهمين بتهم جماعية ، كما يحدث بعد المظاهرات ، وتمرّدات بعض المدن والأحياء ، لكن التي عرفها الجزائر في الفترة الإستعمارية لم تكن تختلف عن السجون في شيء ، لوجود أساليب التعذيب فيها ، ولطول المدة التي تقضي فيها ، والتي تبلغ السنوات العديدة ، الشيء الذي جعلني لا أدرجها في عنوان البحث ، معتبراً أياها سجونا ، لهذا السبب ، وليس آخر ، وهو أنني لم أقف على من أبدع في أيام المعتقل ، أي في الفترة الانتقالية ربما لاضطراب نفسي ناتج عن مجهولية المصير ، أما الذين أبدعوا فيها في خارج الفترة الإنتقالية ، أي في الفترة التي كان من المفروض أن يقضوها بالسجون . ومنهم من ذلك اكتظاظ هذه الأخيرة في مرحلة الثورة المسلحة .

ج - الأسر : وهو أخذ المغلوب الذي لم يتمكن من الهروب بعد معركة أو كمين وبالرغم من أن الأسير يتساوى في ظاهرة انعدام الحرية مع السجين والمعتقل ، إلا أنني لم أدرجه في هذا البحث ، كعدم وجود أسلوب الأسر في العصر الحديث فالذي يؤسر لا يؤخذ الى أي مكان في انتظار الفدية أو ما شابهها ، بل يكون مآله المعتقل أو السجن ، فيصبح بذلك معتقلاً أو سجيناً ، لا أسيراً .

د - النفي : أخيراً . هناك النفي ، وهو إبعاد المغضوب عليه من وطنه الى بلد آخر أو الى مدينة أخرى داخل وطنه ، وتختلف المنافي تبعاً لكونها داخلية أو خارجية ولاختلاف وضعية المنفيين ، من تركهم أحراراً في التنقل داخل المنفى ، أو اعتقالهم فيه أو سجنهم .

هـ - أما الإقامة الجبرية : فإن انعدام الحرية فيها غير متوفر إلا بشكل نسبي

وبسيط حيث يبقى الخاضع لها في بلدته وبين أهله وذويه ، ولا يُمنع إلا من السفر وبعض النشاطات ، مما جعلني لا أدرجها ضمن هذه الدراسة .

وبصورة عامة ، فإن ما أغراني بدراسة هذا الموضوع عوامل .

1 - قيمة هذا الأدب الوطنية ، بصدوره عن أناس ، تهمة الوطنية هي كل ذنبهم ، وسبب محنتهم ومعاناتهم ، بعيداً عن أية انحرافات أخلاقية أو سلوكية ...

2 - قيمته الثورية ، بانطلاقه من بؤر البطش والاضطهاد والتعذيب ، وتنفسه في أجواء خانقة ، نتيجة الوحدة والإبعاد .

3 - قيمته الإنسانية ، باعتناقه مثل الخير والحق والحرية ، وصراعه ضد قوى الشر والجبروت ، يحدوه في ذلك أمل صاعد مبتسم في وجه المحن والخطوب ، وإيمان لا يتزعزع بإنسانية الإنسان .

4 - جدة الموضوع وطرافته ، حيث لم تظهر فيه أية دراسة شاملة ، سواء من حيث الفترة الزمنية الاستعمارية ، أو من حيث الأنواع الأدبية المختلفة ، أو لغات التعبير .

مادة البحث ، مصادره ومنهجه :

مادة هذا البحث نصوص أدبية مختلفة أنواعها ، من قصيدة ومقالة ، وقصة ومسرحية ورسالة ... ومختلفة لغاتها ، من عربية فصحي ، وعامية ، وفرنسية أيضاً ، وهذا التنوع الثنائي فرضته طبيعة الموضوع وخصوصياته التي تتجلى في ما يلي :

أ - ظاهرة أدب السجون والمنافي وظاهرة مضمونية تاريخية نفسية ، وليست لغوية وكان لها بروز واحد في جميع نصوصها ، دون أية فروق يطرحها اختلاف اللغة أو اختلاف الأنواع الأدبية .

ب - الإبداع أو عملية المخاض الأدبي ، كان بالنسبة للمنفي والسجين قضية حيوية ، وهدفاً في حد ذاته ، وكان مدفوعاً إليه بتحديات كثيرة ، تجعل الإبداع وسيلته للهروب الى أجواء أخرى ، ومطيته الى تحقيق توازن نفسي يقيه القلق والكآبة ، والإحباط والإنهيار ، إذ المهم هو التنفيس عن النفس الذي يتحقق في إطار أي نوع أدبي وتوظيف أية لغة .

أما مصادر البحث ، فكانت متعددة أيضاً ، من كتب مطبوعة ، ومن مخطوطات ودوريات صدرت في بلدان مختلفة .

منهج البحث نابع من طبيعة الظاهرة المتعددة جوانبها . من تاريخية حضارية ونفسية

واجتماعية ... منهج قريب من المنهج التكاملي الذي تتضح - تقديماً - نظريته بعد على المستوى التطبيقي . منهج يأخذ من كل المناهج ويجمع بين طرائقها ، وقد يركز على واحدة منها تبعاً للنص ، وبصورة عامة ، فهو يتعامل مع النصوص على أساس فني وتاريخي واجتماعي ونفسي ... دون أن يكون لهذه الجوانب حضور واحد في وقت واحد ... وبناء على ما تقدم كله قسمت الموضوع الى تمهيد ، وأربعة أبواب ، وخاتمة وذيلته بملحق لتراجم الاعلام غير المشهورين .

في التمهيد تطرقت الى «الأدب والإلتزام» محاولاً تبيانى العلاقة بين الأدب والحياة ، وبينه وبين الثورات وحركات التغيير ، هما يشكل جدلية الإمتاع والإلتزام ، وعلاقة الفن بالواقع ، ومنتهاً الى شبه خلفية نظرية ، للأدب المقاوم الذي يندرج في إطاره أدب السجون والمنافي .

المحور الثاني من التمهيد ، هو «أدب السجون والمنافي العربي» وقد حاولت من خلاله تقديم صورة عن هذا الأدب في كل العصور العربية ، ابتداء من الجاهلي ، وانتهاء بالحديث وهذا في كل من المشرق والمغرب العربيين ، منتهاً الى خصائص ذلك الأدب التي ستتطور وتعمق في الأدب الجزائري الى حد التناقض .

المحور الثالث من التمهيد خصصته للتعرف على السجون والمعتقلات والمنافي التي أنشأها الإستعمار بالجزائر ، مقدماً صورة عما كان يُمارس فيها من تعذيب جسدي وإيلام نفسي ، معتمداً في ذلك على شهادات حية لبعض من كانوا عرضة للاعتقال بها . الباب الأول خاص بدراسة بعض الإشكاليات العالقة بظاهرة أدب السجون والمنافي ، وهي ثلاث تطلبت ثلاثة فصول :

الفصل الأول : «إشكالية الإبداع في السجن والمنفى» نظرت فيه الى الظاهرة من وجهة نظر علم النفس الأدبي ، محلاً دوافع الإبداع في الظروف الخاصة التي يدرسها البحث . الفصل الثاني : «إشكالية اللغة» . ويدرس قضية التعبير بلغة ما في هذا الأدب مركزاً على قضية الكتابة بالعامية من قبل بعض من تعودوا الكتابة بالفصحى ، وقضية الأدب المكتوب بلغة الاستعمار في السجون والمنافي .

الفصل الثالث : «إشكالية الأنواع الأدبية» ، أقيمت فيه نظرة على الفنون التي عرفتها السجون والمنافي ، محدداً العوامل التي دفعت الأدباء الى الإبداع في أنواع أدبية دون أخرى ، وهي عوامل فنية ونفسية وواقعية .

الباب الثاني : خصصته لدراسة موضوعات أدب السجون والمنافي وقضاياهم ومضامينه التي وجدت أنها تنضوي تحت خمسة عناوين كبيرة ، قسمت على أساسها الباب الى خمسة فصول :

الفصل الأول : «وصف الحياة اليومية في السجن والمنفى» التي كان قوامها التعذيب وتردي ظروف المعيشة وتدهورها ، ثم معايشة المجرمين ، وأخيراً إهانات مختلفة كان يتعرض لها المساجين والمنفيون يومياً ، وانتهاء بمعايشة أحداث تنفيذ أحكام الإعدام .

الفصل الثاني : «آلام الغربة والفراق» . وفيه رصد لعواطف المساجين المتأججة نحو من فارقوهم من الأهل والأصدقاء ، ونحو الوطن عند المنفيين ، وفيه وقفة خاصة عند الأمير عبد القادر في منفاه بباريس ، ثم بالشام ، حاولت فيها تجلية أسباب صمت الأمير عن الجزائر وعدم ذكرها في شعره بالمنفى .

الفصل الثالث : «الهروب النفسي الى الحرية ، تطرقت فيه الى وسائل المعتقل المبدع للمحافظة على توازنه النفسي ، وهي أشكال من الهروب النفسي الى أجواء الحرية عن طريق الاعلام ، وأحلام المقتطة ، والإسقاط .

الفصل الرابع : «القضية الوطنية» ، ويتناول ما دار من هذا الأدب حول المقاومة والتحدي ، ومواكبة قضايا الوطن ، منتصراً لها ، وداعياً الى نصرتها .

الفصل الخامس : «الشوق والحنين عند المنفيين غير الرسميين» ، ويتناول عاطفة الشوق والحنين عند طائفة من الطلاب الذين كانوا يدرسون خارج الجزائر ، ورفضوا الدخول إليها هروباً من الإعتقال .

الباب الثالث : الجانب الفني في أدب السجون والمنافي» ، ويدرس العناصر الفنية التي تشكل ظواهر عامة الى حد ما ، في هذا الأدب ، وهي خمس تطلبت خمسة فصول : الصورة الشعرية ثم التصوير في المقالة الأدبية والقصصية ، وفتيات الرسالة فنيات القصة ، وأخيراً . المقومات الفنية في المسرحية .

الباب الرابع : خصائص أدب السجون والمنافي في الجزائر ، وهي الميزات التي أكتبتها النصوص نتيجة ميلادها بالسجن أو المنفى ، وقد تم حصرها في أربع خصائص :

الفصل الأول : الإيمان العميق ، الذي يعني التشبث بالمفاهيم والمواقف بشكل قوي .
الفصل الثاني : الصدق . أي أتمام هذا الأدب بالعفوية بعيداً عن التكلف والافتعال ، وقد ميزت فيه بعض الصدق في القضايا الذاتية ، والقضايا الموضوعية الغيرية .

الفصل الثالث : سيطرة الذات الجماعية وروح التفاؤل والتسامي توصلت من خلاله الى أن هذا الأدب أدب غيري يعبر عن الذات الجماعية في تفاؤل واتسام واضحين .

الفصل الرابع : التركيز على المضمون دون الجانب الفني ، حاول فيه تبين ما بنصوص السجون والمنافي من قوة في المضمون وضعف في الجانب الفني ، مودة ، في الأغلب ، الى تقديس المضمون المبالغ فيه ، والرغبة الجامحة في التبليغ والدعوة الى التغيير .

وفي الخاتمة رصد لأهم نتائج البحث ، التي يمكن إيجازها في ما يلي :
- إن أدب السجون والمنافي في فترة الاحتلال الفرنسي ، يمثل قمة الأدب الجزائري الملتزم المقاوم ، وزيده الأدب الثوري الرفض ، لأنه تعرض للبلاء والإضطهاد ولم يزد ذلك إلا تشبهاً بمنطلقاته ومبادئه ، بعيداً عن أية مصلحة ذاتية .

- إن المكتوب بالعامية من هذا الأدب لا يقل أهمية عن الفصحى منه ، وقد كان مكملًا له ، لأنه لم ينشأ نتيجة تقديس العامية على حساب الفصحى ، بل نتيجة الرغبة في التوغل في أوساط غير المثقفين ، وفي إحداث التأثير القوي ، خدمة للقضية الوطنية لا غير .

- إن الأنواع الأدبية التي تعتمد على تدفق الشعور الآني ، بعيداً عن التخطيط وتطلب النفس الطويل هي الأكثر كماً ، والأغرز في نتاج المنفيين والمساجين وبناء على ذلك تحتل الصيدة الدرجة الأولى وسيلة تعبير ، تليها الرسالة التي تعتمد السرد دون أية مقاييس أو ضوابط فنية ، ثم المقالة التي هي أبه ما تكون بالقصيدة في فنياتها ، وبعدها المسرحية التي تقوم على التخطيط ، ولكنها تغري بالتمثيل واتساع رقعة التأثير ، فالقصة التي تتطلب حساً فنياً وتخطيطاً دقيقاً ، وإلا لتحولت الى مقال قصصي ، والتي لم أعثر إلا على نص واحد منها ، أما الرواية التي تتطلب التخطيط والنفس الطويل فلم أجدها عند أي منفي أو سجين .

وأما الخطبة فإنها تعتمد لتدفع الشعور ، لكن بشرط وجود التجمعات . والإلقاء مشافهة ، وهما لا يتوفران أبداً في السجون والمنافي ، لذلك لم نجد منها إلا نصاً واحداً .

- هذا الأدب يقدم صورة متكاملة لحياة أصحابه الخاصة المتميزة ، قوامها القتامة والمعاناة ، ويركز أدب السجون على العذاب الجسدي وظروف المعيشة الصعبة ، بينما يركز أدب المنافي على معاناة الشعور بالحرية وتأجج الراعي الشوق والحنين ، وتتداخل الصورتان غالباً ، خاصة عند الذين كانوا منفيين ومساجين في آن واحد .

- لقد لجأ كل من المنفي والسجين الى وسائل يخفف بها تأثير انعدام الحرية عليه

ويحافظ على توازنه النفسي ، أهمها . الأعلام ، وأحلام اليقظة ، والقيام بعمليات إسقاط عواطفه ومشاعره التي يملكها نحو أشخاص خارج السجن ، على أشياء داخل السجن تجسد له موضوعات منضلة لإفراغ شحنات عواطفه وأحاسيسه ، في ما يعرف بمبدأ التعويض في علم النفس .

- إن جزءاً كبيراً من هذا الأدب يعانق القضية الوطنية بكثير من التحمس وحدة الشعور ، يتجلى ذلك في التعبئة السياسية والتوعية في ما كتب منه قبل اندلاع الثورة المسلحة ، وفي مواكبة تطورات الثورة في ما كتب منه بعد اندلاعها ، وفي كل ذلك يتسم هذا الأدب بتصويراً أعمق للمشاعر الوطنية ، وأدق مفاهيم الحب والنداء .

- يتسم هذا الأدب بالإيمان العميق ، بعيداً عن الإهتزاز النفسي والصراع الداخلي بالرغم من عمليات غسيل المخ التي كان يقوم بها الإستعمار ، ومحاولاته زعزعة الإيمان في نفوسهم ، وتخفيف حدة الرفض والمقاومة عندهم .

- كما يتسم بالصدق والواقعية ، بعيداً عن التكلف والمبالغة ، في مجال المضمون وبالبساطة والعفوية ، بعيداً عن الصنعة والزخرف اللفظي في مجاز الشكل ، محققاً بذلك تلاحماً وثيقاً بين الجانبين .

- واتسوا أيضاً بسيطرة الذات الجماعية ، فهو أدب الإيثار والتضحية ، وإفناء الذات في سبيل حياة المجموعة ، وهموم المنفي والسجين ليست - في الغالب - حياتهما المتردية النفيسة ، بقدر ما هي هموم الوطن المتمثلة في الإحتلال ومعاناة الشعب ، وبالرغم من ذلك ، فلم يمل هذا الأدب الى التشاؤم واليأس ، بل طغى عليه التفاؤل والتسامي المنبعث من الذات لا من الواقع ، فأصبحت مناظر المعاناة مناظر السعادة والحبور وأصبح التعرض للآلام مجالاً ، لا للتشكي ، بل للتفاخر والتباهي ، باعتبار كل ذلك ثمناً بخساً ، لمقابل مقدس نفيس ، هو الحرية والإستقلال .

غير أنه اذا كانت السمات المتقدمة من عوامل تفرّد هذا الأدب وخلوده فإنه عرف سمات أخرى ذات أثر سلبي عليه ، وهي ضعف المستوى الفني ، نتيجة التركيز على المضمون ، والإحتكام الى مقاييس الوطنية والرفض والإنتماء ، على حساب مقاييس الفن والإبداع ، نتيجة التحمس الذي طبع حياة المساجين والمنفيين وجوّ التحدي الذي عاشوه ، الشيء الذي جعلهم يسخرون كل شيء لحذقة القضية الوطنية ، ولا شيء غيرها . وجعل آخرين منهم يرتادون الحرم الأدبي بالرغم من عدم امتلاكهم أدواته . .

أملني أن يكون هذا البحث قد استطاع الإسهام في إبراز وجه الأدب الجزائري في فترة
الإحتلال ، بما اتسم به من مقاومة وتحذو إنسانية ، وتشبث بالهوية والأرض وأن يكون قد
ألقي بعضاً من الضوء على أدب نشأ بعيداً عن الأضواء ، يصارع الظلمات ويسعى الى إشاعة
النور ، وإشراق الشمس على ربوع الجزائر .